

من ان تجرّها حرب كهذه، اذا ما حصلت، الى مواجهة شاملة مع الولايات المتحدة الاميركية في المنطقة^(٢٥). والواقع ان الاتحاد السوفياتي وقف، بالفعل، الى جانب اولئك الذين كانوا يرغبون في اغلاق الملف الفلسطيني، بصورة أو بأخرى. قال خالد الحسن، في هذا الخصوص: «ان السوفيات نصحوا عبد الناصر، من اجل تهميشنا [يقصد 'فتح']، بأي وسيلة ممكنة؛ وقالوا له ان فكرة حركة تحرير فلسطينية ليست سوى 'فولكلور'، وأطلقوا في وصفنا لقب 'رعاة بقر'»^(٢٦).

كيف يمكن تعديّ عرض هذا التوجّه السوفياتي بحق منظمة التحرير الفلسطينية الى محاولة فهم ما كان يجري فعلاً؟ نلاحظ، أولاً، ان السوفيات، ولو انهم لا يتكلمون بهذه الطريقة، فانهم عبّروا عن واقع كان يحكمه اعتباران جوهريان: الاول هو التحالف الاسرائيلي - الاميركي. واضح انهم كانوا يعرفون أهميته؛ بل انهم لم يتورّعوا عن التكلّم عن تطوير اسرائيل لسلاح نووي قد يشكّل تهديداً مباشراً لجميع الدول العربية. غير ان هذا التحالف متعدّد الجانب، قد يمر في أزمة، وفي هذا المجال قد يبدو التوجه السوفياتي ازاء شجب العمليات العسكرية الفدائية الفلسطينية «مفيداً في كل الأحوال». الاعتبار الثاني يمكن استشفافه من الحملة الاعلامية السوفياتية التي كانت مركزية، يومذاك، على الفصل بين «القوى التقدمية» في اسرائيل، وبين «العسكريين المتطرّفين» الذين يشكّلون، في نظرها، «الدوائر الحاكمة» في تل - ابيب^(٢٧).

من جهة أخرى، تميّزت العلاقات السوفياتية - العربية، في العام ١٩٦٦، بما بدا انه تصعيد في حرارة الدعم السوفياتي لسوريا، رافقه، اقليمياً، تصعيد في التوتر على خط الهدنة السورية - الاسرائيلية. وقد لا يكون سبب الدعم، الآتي من موسكو، حضور النوايا الحسنة؛ فبعد انقلاب شباط (فبراير) ١٩٦٦ في سوريا، بذل الاتحاد السوفياتي جهوداً حثيثة لتمتين علاقته مع السلطة الجديدة في دمشق. وكان يدفعه الى ذلك، على ما يبدو، سببان رئيسان: الاول، ان سوريا كانت تتشكّل، بانفتاحها على البحر الابيض المتوسط وقربها من البحر الاسود، مركز مواصلات بالغ الاهمية للاستراتيجية البحرية السوفياتية؛ والثاني، ان سوريا كانت، الى جانب مصر، حجر الاساس في منطقة الشرق الاوسط التي تستخدمها موسكو «ورقة» لاعاقه الاختراق الاميركي في المنطقة^(٢٨). وتبعاً لذلك، ترتّب على موسكو «مسايرة» المواقف السورية الداعمة لحركة المقاومة الفلسطينية وحرب التحرير الشعبية. وبرزت تلك «المسايرة»، بوضوح، في البيان السوفياتي - السوري المشترك، الذي أصدر في ٢٥ نيسان (ابريل) ١٩٦٦، على اثر اختتام زيارة رئيس الوزراء السوري، يوسف زعيم، لموسكو. ففي هذا البيان، أيّد الاتحاد السوفياتي «شعب فلسطين، الذي يسعى الى استعادة حقوقه من الصهيونية، التي يتوسّلها الاستعمار لتنفيذ مخططاته في الشرق الاوسط»^(٢٩). وبالطبع، من الاهمية بمكان ان نذكر بموقف بعض الاوساط الاسرائيلية التي اعتبرت مهاجمة البيان المشترك لـ «الصهيونية»، وعدم تطرّقه الى اسرائيل، بصفة محدّدة، بمثابة تحوّل عن العادة السابقة، على الرغم من ان هذا التحوّل لم يكن يعني تبدالاً جوهرياً في سياسة الاتحاد السوفياتي التقليدية تجاه النزاع العربي - الاسرائيلي^(٣٠).

ثمّة ما يحملنا على الاعتقاد بأن موسكو كانت وضعت، على العكس من ذلك، هذا النزاع ضمن اطار الحرب الباردة مع الولايات المتحدة الاميركية، بدلاً من حصره في اطاره الاقليمي. وهذا ما كان يجد تفسيره، على الدوام، في مواقف عدّة. ولعلّ خير مثل على ما نقوله هو، بالطبع، شجب صحيفة «ازفستيا» السوفياتية الاعتداءات الاسرائيلية على سوريا، واتهامها «العسكريين والدوائر المتطرّفة» في اسرائيل، بافتعال «تحديات مسلّحة» ضد سوريا، في محاولة لقلب نظام الحكم اليساري فيها.